



كان حريا بي أن أصيغ العنوان الفرعي لهذا المقال كالتالي (من) المقدمة إلى نهاية التاريخ"، وهذا عوض من: "المقاربات التاريخية إلى مفارقة الواقع". بيد أن صنعة السجع قد لا تستقيم مع متطلبات الضبط، فالمقدمة الخلدونية تمثل مقارنة تاريخية نوعية لتأسيس علم الاجتماع ولكن هناك أيضا المقاربات التاريخية: الكونتية والماركسية والفيبرية والتي تمثل نماذج إرشادية Pradigmes أرست صرح السوسيولوجيا.

كما أن أطروحة "نهاية التاريخ" لصاحبها فوكوياما تمثل وجهة نظر من بين أخرى فصحيح أنها أكثر شهرة و لكنها ليست أكثر حضوة في الأوساط الأكاديمية لأنها أيديولوجية بالدرجة الأولى في مقابل تيار ما بعد الحداثة الذي يفارق كل شيء بما فيه التاريخ، وهو أكثر حضورا في حقل علم اجتماع المعرفة وعلم اجتماع علم الاجتماع sociologie de la sociologie ... يتضح، هكذا، رويدا من عرض خيارات ضبط العنوان ملامح المقال: فحص جدلية المعرفة والواقع الاجتماعيين من خلال طرح السؤال عن طبيعة المعرفة في علم الاجتماع: هل هي تاريخية أم لا تاريخية؟ لقد وافق ظهور علم العمران (الطبعة الأولى لعلم الاجتماع) إحتضار الحضارة الإسلامية ورافق ظهور السوسيولوجيا (الطبعة الثانية لعلم الاجتماع) صعود الحضارة الغربية.

أ.نعمان عباسي

طبيعة المعرفة
في علم الاجتماع

- من المقارنات التاريخية
إلى مفارقة التاريخ -

أما الآن فيطرح السؤال عن مصير علم الاجتماع في المرحلة " الفائقة للحدث"، وفي خضم ذلك شهدت المجتمعات الإنسانية و الإسلامية بالخصوص ردت فعل عنيفة إزاء التحولات والمنعطفات التاريخية التي أعقبت بالتوازي : سقوط الحضارة الإسلامية وبزوغ نجم الحضارة الغربية من جديد واستحواذها على سيادة العالم ، والحقيقة التي نتجت هي أن الخيارات المتاحة و البدائل المفروضة أمام مصير الإنسانية ، والتي أضحت مصيرها مترابطة أكثر من أي وقت مضى ، قد إنكمشت إلى أمرين: إما مع العولمة الغربية أو ضدها ، هذا فيما يبدو أن التاريخ قد احتضر ولم تبقى إلا الجغرافيا النمطية (الإتصالية، والمالية، والسياسية، و العسكرية...))

يتعين إذن طرح السؤال حول مصيرنا ويتطلب الأمر وهو متعلق بالمستقبل التوقف عند التاريخ، وإن كان هذا العمل ليس في متناول فرد أو أفراد فإن المحاولة لا غنى عنها ، وقد ارتأيت أن أتخذ من طبيعة المعرفة السوسيولوجية في ضوء مقولة التاريخ مقارنة مناسبة للموضوع.

فعلم الاجتماع الذي يرميه البعض بلتهافت وتشتت جهود العاملين في حقله إلى مسالك متشعبة تبحث في كل شيء و عن أي شيء، يمثل فرعا معرفيا إشكاليا في نسق العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، فمنذ تأسيس علم العمران إلى إعادة الإكتشاف و التأسيس كان علم الاجتماع حلبة جدل ورحما منتجة للمقاربات التاريخية أو اللا تاريخية الكبرى: " المرحلة الوضعية"، و " المجتمع الشيوعي العالمي"، و "نهاية التاريخ"...

إن المسار المتميز لعلم الاجتماع (السوسيولوجيا) قد كفله تأصل الطابع المذهبي (الإيديولوجي) فيه، وهذا ما يجعل من عملية البحث في طبيعة المعرفة في علم الاجتماع و علاقتها بالتاريخ ذات فائدة بخاصة في إعادة صياغة مشكلة العولمة والرهانات التي تطرحها على المجتمعات و مصيرها . إذن كيف يمكن صبر غور طبيعة المعرفة في علم الاجتماع من خلال : المقاربة (approche)، المقارفة (époché) التاريخية؟

ظهر علم الاجتماع في الغرب كعلم يبحث في الأزمة الاجتماعية(1) فقد تأسس على يد مطلق التسمية عليه" أجست كونت " كحل وسط بين فلسفة التنوير الثورية و الفكر الرومانسي المحافظ ، حيث أقام فلسفته الوضعية التي كانت بمثابة الأرضية التي شيدت عليها السوسيولوجيا أو " الدين المسيحي دون عقيدة كاثوليكية"، في مقابل هذا الفكر المثالي نظر " كارل ماركس" لعلم المجتمع الذي اتخذ من المادية الجدلية منهجا له، في كلتا الحالتين أو المآلين اللذين ستأخذهما السوسيولوجيا: المحافظة (المثالية) والثورية (المادية) فإنهما إتفقتا على الإطار العقلاني الواقعي (العلماني) كمنطلق وغاية لتوليد ونقد المعرفة الاجتماعية (العلمية)، وقد أفرزتا نظريتين تقدميتين في منحى ينتصر لسيادة النموذج الحضاري الغربي، حيث ينهي "قانون الحالات الثلاثة " التاريخ بالمرحلة الوضعية، وتنتهي "الجدلية التاريخية" إلى المصير الشيوعي العالمي المحتوم.

علم الاجتماع في الغرب إذن معرفة إنسانية محضه ، فهي تعكس الواقع الاجتماعي

إما بوصفه وتبرير الحاجة للحفاظ عليه أو بانتقاده و تعليل الحاجة إلى تغييره وفق فلسفة علمانية تجعل من تفاعل العقل والحس مع معطيات العالم (الواقعي) المصدر الوحيد لإنتاج المعرفة وتقييمها، والحال هذه فإن التنظير الاجتماعي في الغرب منذ دخوله منعرج الحداثة انطلق من التاريخ، محاولا إقامة نماذج لمجتمعات تخيلية (عالم المثل، اليوتيبيا...)، وكان لظهور السوسيولوجيا كنمط معرفي مغاير إيدانا لقطع الصلة مع الممارسات الفلسفية والنبوءات التأملية وأرسى لمرحلة العقلنة الواقعية...

لقد ظهر علم الاجتماع أول ما ظهر على يد ابن خلدون متخذاً تسمية " علم العمران البشري والاجتماع الإنساني" حيث كان موضوعه البحث في طبائع العمران، وقد كان هذا الكشف مصاحباً لكتابة التاريخ وقد اتفق ذلك ، كان نتيجة له، أزمة إجتماعية متعددة الأوجه عصفت بالحضارة الإسلامية وأعلنت بداية أفولها.

في هذا المستوى من العرض مفيد تسجيل الملاحظات التالية:

- ظهر علم الاجتماع على يد ابن خلدون كضرورة منهجية لتدوين التاريخ الإسلامي الذي صادف وصول هذا الأخير إلى أزمة مبرمة.

- ظهر علم الاجتماع في الغرب كاستجابة لتفسير أزمة مجتمعية واكبت فترة انتقالية في تاريخ الحضارة الغربية : العصر الوسيط (الكنيسة و الإقطاع و المملكات) ، والعصر الحديث (التنوير و الرأسمالية والجمهوريات).

لقد كان التاريخ نقطة الارتكاز المحورية لظهور علم الاجتماع بحيث اعتمد المؤرخون الاجتماعيون على التحليل السوسيولوجي لنقد المادة التاريخية وتفسير وتركيب الأحداث التي تضمنها واستند الاجتماعيون المؤرخون على التاريخ الاجتماعي لدى الرواد الأوائل ، ويصف عبد الله العروي هذه العلاقة بقوله: " نمت الاجتماعيات (السوسيولوجيا) في أحضان علوم التاريخ ثم استقلت عنها ، ثم عادت لتؤثر فيها ، فظهرت مؤخراً بحوث تصف الحياة الاجتماعية من منظور سوسيولوجي لكن في عهد ماضي... " (2)

إذا ما بسطنا العلاقة بين علم الاجتماع و التاريخ، فإننا سنلمس إشكالا حقيقيا في التبع المرحلي لها، بحيث:

- ظهر علم الاجتماع كحاجة ملحة: أداة منهجية لتصويب الأخبار وتدوين التاريخ بطريقة علمية عند ابن خلدون.
- وضع الرواد الأوائل نظرياتهم في علم الاجتماع بهدف أساسي : إما لتعليل التاريخ الإنساني والمحافظة على الواقع عند كونت، نقد التاريخ وتغيير الواقع عند ماركس، فهم الواقع في علاقته بالتاريخ و إعادة تفسيره عند فيبر.
- بالنسبة للتيارات السوسيولوجية المعاصرة فقد توجه أصحابها إلى إهمال معطى التاريخ أو تهيمشه ، بعدما انحصرت آمال منظريها لعدم تحقق نبوءات أسلافهم حيث اصطدمت مشاريعهم النظرية بحريين عالميتين ثم انقسام المجتمعات الغربية إلى معسكرين متحاربين.. لقد تم إغفال نموذج النظريات الكبرى التي سعت إلى فهم التاريخ و تفسيره في كليته و في محاولات التنظير الواسعة النطاق تخلت عن التاريخ واهتمت بالواقع.. (3) لقد أبدلت " الوضعية المحدثة "

(علم الاجتماع الرياضي) المنهج التاريخي بالتحليل الرياضي الصرف، و كما هو الشأن بالنسبة للوظيفية التي تجاهلت التاريخ و انكب منظروها على النموذج الوصفي لتحليل الحياة الاجتماعية و أبدعت مدارس " الفعل الاجتماعي " مقاربات لاتاريخية ، أما البنيويون فقد اهتموا بإنشاء نماذج وصفية للظواهر الاجتماعية بمحاكاة اللغة ، ورغم أن الماركسية المحدثه احتفظت بالتاريخ كمعطى في التنظير والبحث السوسيولوجي إلا أنها ابتعدت عن تمثيل تاريخية الماركسية الأصلية ، حيث اتجهت إما نحو تحليل الماركسية ذاتها وفق متغيرات المجتمعات الغربية و تعديلها بما يتماشى و روح العصر كالبنوية الماركسية و نظريات التبعية، أو احتفظت بممارسة النقد كهدف جوهري للنظرية السوسيولوجية عند مدرسة فرانكفورت، أو اهتمت بتحليل التاريخ المحدود النطاق لفهم الواقع الأنّي مثل ما هي الحال عند ميلز .

• في الوقت الراهن، عصر العولمة فإن المعرفة السوسيولوجية أصبحت تتداخل مع شتى فروع المعرفة الإنسانية بواسطة فروعها ، وغدت المداخل التعددية هي الطريقة المستجدة في ممارسة البحوث الاجتماعية، أما التاريخ فقد عاد بقوة إلى ساحة الجدل والاستشراف ، لكن هذه المرة لإلغائه كليا كما هي الحال في إتجاه ما بعد الحداثة ، فهي كفلسفة تنفي وجود أي شيء وجودا حقيقيا ، ومن ثمة التاريخ ولا تثبت إلى " النسبة المطلقة " ، أما الاتجاهات الاستشرافية الأكثر براغماتية فتنتبئ على لسان فرانسيس فوكوياما بنهاية التاريخ إحياء للنوبة الهيجلية، وفي الإتجاه نفسه يستدرك صموئيل هنتنغتون بوجود مرحلة إنتقالية في سيادة النموذج الحضاري الغربي هو " صراع الحضارات " .

إن الفكرة الرئيسية التي حاولت إجلاءها فيما سبق مثيرة للاهتمام إذ يصادف اكتشاف علم الاجتماع (علم العمران) محاولة كتابة التاريخ ، يتحدد على إثرها موضوعه وترتسم حدوده و منه يصبح التاريخ محور النظريات الاجتماعية في مرحلة ميلاده الثانية و المنهج التاريخي عمادها لتطلعنا النظرية السوسيولوجية بإلغاء التاريخ من مجال اهتمامها أو على الأقل تهميشه، ثم يوقع منظرو العولمة و ما بعد الحداثة على " نهاية التاريخ " .

ونخلص إلى أنه يمكن حيك ما سبق في القضية الجدلية التالية: هل المعرفة السوسيولوجية (العلم - الاجتماعية) تاريخية بالضرورة ، أم أن تاريخية المعرفة السوسيولوجية هي التي تقدر في بلوغ علميتها وبالتالي عالميتها؟ بغرض سبر هذه الحقيقة و فحص مدلولاتها عبر تاريخ علم الاجتماع، يمكن التحليل من إستخراج النتائج التالية:

أ- بدأ بعلم العمران الذي يمثل الطبعة الأولى و الأصلية لعلم الاجتماع، فنتساءل: لماذا لم يهتم ابن خلدون بتفسير التاريخ رغم أنه توصل إلى إكتشاف علم يحمل بين طياته تفسيرا للحياة الاجتماعية، واكتفى عوض ذلك باستعماله كأسلوب لتصحيح الأخبار ؟ أم أن ابن خلدون انطلقا من كونه فقيها استغنى عن المعرفة العقلية و اكتفى بالإسلام من منظور عقيدته الأشعرية كإطار جامع مانع لتمثل التاريخ وحاضر

ومستقبل الأمة؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل هذا تقرير ضمني عن عجز علم العمران عن ذلك؟ أم أن ابن خلدون لم يقم بتفسير التاريخ ليبراً نمته من الفلسفة وهو الذي انتقد منتحليها و وصف علم العمران كعلم عقلي ، أنه من مباحثها المباحة؟!

ب- إذا كان الواقع الاجتماعي هو الذي يشرط المعرفة السوسيولوجية ، وما النظريات و المنهجيات أي المقاربات إلى انعكاس للإفرازات الاجتماعية: الإيديولوجية و الإقتصادية و السياسية و الثقافية و التقنية... ، فهذا النوع من المعرفة محكوم عليه ليكون ظلاً للواقع الذي ينتجها ، تبرز وجوده أو تنتقد جوانبه دون أن ترقى لأن تكون معرفة علمية غير متحيزة (موضوعية) وهذا يجر التساؤلات التالية:

- هل الطابع الوضعي للمعرفة السوسيولوجية حكم على نموها بأن تكون معرفة "علمية من الدرجة الثانية" تعيد صياغة الواقع في قوالب تصورية ثم تصاغ بدورها وفق هذا الواقع؟ وهل يمكن الوصول إلى معرفة علمية وحال اللاإكتمال، بل التعدد والتشتت سمة ضرورية ملازمة للمعرفة السوسيولوجي ، باعتبار أنه لا يمكن تحقق مجتمع مثالي (يعكس المثالية في المعرفة التي يفرزها) ؟ أم أن إنهاء التاريخ الذي تعبر عنه مقولات : المرحلة الوضعية ، و المجتمع الشيوعي العالمي، والعولمة ، يمثل تناقضاً صارخاً و متأسلاً في المعرفة الاجتماعية الغربية عموماً؟

إن الأسئلة السالفة الذكر تمثل أدوات لمقاربة الموضوع وليس الهدف من طرحها إيجاد إجابات جاهزة لها ، بل إنها قد لا توجد أصلاً..بينما تعبر وفق صيغتها و مضمونها المشروع، عن مسوغا لفحص مواقع علم الاجتماع (في نسختها التاريخية أو اللاتاريخية) و أدواره ضمن النظام المعرفي الغربي ومن مواقع وأدواره ما يلي:

- علم الاجتماع علم إستعارة نماذج المنهجية الطبيعية و إعادة صياغتها على الظواهر الاجتماعية .

- علم الاجتماع ينتج قوالب منهجية للمعرفة الاجتماعية و ينقدها.

- علم الاجتماع يضم وينظم المعرفة الاجتماعية ثم يعيد إنتاجها.

- علم الاجتماع في طبيعته الغربية علم نهائي لا تاريخي و هو نتاج خصوصية حضارية تاريخية.

تؤكد هذه الاحتمالات الثلاثة الأولى لموقع و دور علم الاجتماع على الطابع الإشكالي للمعرفة السوسيولوجية فمن العلم الذي يتربع على عرش هرم العلوم عند كونت إلى " علم نفاية" عند لازرسفلد(4) .. و إذا أدمجنا هذه الأدوار و المواقع وجعلنا منها دوراً وموقعا واحداً ، يظهر عندئذ أن السوسيولوجيا قد أخذت دور الفلسفة ، أي أنها تحاول صياغة الأسئلة النهائية و الكلية حول الإنسان والكون و المستقبل ، و تقترح الحلول القصوى للمشكلات الإنسانية و مشاريع المجتمع ، بمعنى آخر أصبح دورها صياغة ونقد رؤيا العالم world view بعد أن أزيح الدين (5) ثم الفلسفة...وهو ما انعكس على شكل علم الاجتماع ومضمونه : علم موسوعي و زبقي يمتد في كل مناحي الحياة الاجتماعية دون أن يرسو على موضوع أو موضوعات محددة أو على مقاربات واضحة...

إن السوسيولوجيا هي " علم الحداثة" (6) الغربية و الذي لا يمكن أن يكون إلا نتاج خصوصية حضارية تاريخية، طالما أن الواقع الذي ينتج المعرفة أو يشترط في جزء منها شكلها ومضامينها و أهدافها.. وعندما ينتهي التاريخ (ما بعد الحداثة) لا توجد سوسيولوجيا لأنها تاريخية، و كذلك الأمر في مجتمعات ما بعد حضارية (ما بعد تاريخية) حيث يمكن القول أن التعامل مع الإنسان كموضوع للدراسة يقترب من النهاية عندما يتعلق الأمر بمجتمعات ما زال الإنسان فيها مشروعاً حضارياً (7).

الهوامش والإحالات:

1. -أحمد مجدي حجازي : علم إجتماع الأزمة : تحليل نقدي للنظرية الاجتماعية في مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة، دار قباء، القاهرة، 1998، ص:7.
2. عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت ، ط:3، 1997، ج:1، ص:21.
3. يبدو أن السوسيولوجيا قد غيرت في طورها الأمريكي من أولوياتها و إهتماماتها ، فمع ظهور الوظيفية والتفاعلية الرمزية (أعمال بارسونز و مدرسة شيكاغو بالترتيب) اتجه البحث في الاستلham من أعمال : دوركايم و زيمل و فيبر و باريتو عوض كونت وماركس ، بخاصة مع سيادة المدرسة الوضعية المنطقية و المنطقية النقدية مع أعمال كارل بوبر في مجال الإستمولوجيا ونقده اللادع للنزعة التاريخية منذ ظهور مؤلفه: "بؤس التاريخانية".
4. بول لازرسفلد: علم الاجتماع ، في: الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، اليونسكو، ترجمة: سعد عربي وآخرون، وزارة التعليم العالي ، سوريا، د ت ، ص:161.
5. يؤكد ريمون آرون هذا الطرح في مقال بعنوان: (Science et conscience de la société) قائلا: " لا يمكن للعلم الاجتماعي أن يؤدي وظيفته إلا في تلك المجتمعات التي هي مستعدة لإزالة الأوهام [الدين] " نقلا عن: جان فرنسوا شانلا: العلوم الاجتماعية و إدارة الأعمال ، دارالقصة ، الجزائر ، 2004، ص:25.
6. أنتوني جدنز: قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع ، ترجمة : محمد محي الدين ، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ، 2000، ص:17.
7. -عبد الرحمان عزي : ما بعد البنيوية و المعالم الثقافية العربية، مجلة حوليات جامعة الجزائر ، (عدد2/1987-1988) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص:98.